واشتد زحفهم وقتالهم عليها وهو رحمه الله تعالى يشن الغارات عليهم من خارج العسكر وقاتلهم
من داخل ونصر الله المسلمين به وبحسن تدبيره فرحلوا عنها خائبين فاحرقت مناجيقهم
ونهبت الاتهم وقتل من رجالهم خلق كثير واستقرت قواعد صلاح الدين وارسل يطلب والده نجم
الدين ايوب ليتم له السرور ويكون قضيته كقضية يوسف الصديق عليه السلام فوصل والده
اليه في جمادى الاخرة من سنة خمس وستين قلت هكذا ذكر ابن شداد وصوله الى مصر والصواب
فيه هو الذي ذكرته في ترجمته وسلك معه من الادب ما جرت به عادته والبسه الامر كله فابى
ان يلبسه وقال يا ولدي ما اختارك الله لهذا الامر الا انك كفؤ له ولا ينبغي ان تغير موضع السعادة
فحكمه في الخزائن كلها ولم يزل وزيرا حتى مات العاضد في التاريخ قلت اكثر ما ذكرته في هذا الفصل
منقول من كلام شيخنا ابن شداد في سيرة صلاح الدين وفيه زوائد من غيرها والذي ذكره شيخنا
الحافظ عز الدين بن الاثير المذكور قبل هذا في تاريخ الاتابكي ان لما تمكن ولاية صلاح الدين ان جماعة من
الامراء النورية الذين كانوا بمصر طلبوا التقدم على العساكر وولاية الوزارة بعد عمه اسد
الدين منهم الامير عين الدولة الياروقي وقطب الدين خسرو بن تليل وهو ابن اخي ابي الهيجاء
الهذباني الذي كان صاحب اربل قلت هو صاحب المدرسة القطبية التي بالقاهرة ومنهم سيف
الدين علي بن احمد الهكاري وجده كان صاحب قلاع الهكارية قلت هو المعروف بالمشطوب ووالد
عماد الدين احمد بن المشطوب وقد تقدم ذكره في ترجمة مستقلة قال ومنهم شهاب الدين محمود
الحارمي وهو خال صلاح الدين وكل واحد منهم يخطبها لنفسه وقد جمع ليغلب عليها فارسل
العاضد صاحب مصر الى صلاح الدين وامره بالحضور في قصره ليخلع عليه خلع الوزارة ويوليه
الامر بعد عمه وكان الذي حمل العاضد على ذلك ضعف صلاح الدين فانه ظن اذا ولي صلاح الدين
وليس له عسكر ولا رجال كان في ولايته مستضعفا يحكم عليه فلا يجسر على المخالفة وانه يضع
على العسكر الشامي من يستميلهم فاذا صار معه البعض اخرج الباقين وتعود البلاد اليه
وعنده من العساكر الشامية من يحميها من الفرنج ونور الدين والقصة مشهورة اردت
عمرا واراد الله خارجه قلت هذا المثل مشهور بين العلماء وسياتي الكلام عليه بعد الفراغ
من هذه الترجمة ان شاء الله تعالى عدنا الى تمام الكلام الاول فامتنع صلاح الدين وضعفت نفسه
عن هذا المقام فالزمه واخذ كارها ان الله ليعجب من قوم يقادون الى الجنة بالسلاسل فلما حضر
في القصر خلع عليه خلع الوزارة الجبة والعمامة وغيرهما ولقب الملك الناصر وعاد الى دار
اسد الدين فاقام بها ولم يلتفت اليه احد من اولئك الامراء الذين يريدون الامر لانفسهم
ولا خدموه وكان الفقيه ضياء الدين عيسى الهكاري معه قلت وقد سبق ذكره في ترجمة
مفردة قال ابن قد سعى مع سيف الدين علي بن احمد حتى اماله اليه وقال ان هذا الامر لا يصل
اليك مع وجود عين الدولة والحارمي وابن تليل فمال الى صلاح الدين ثم قصد شهاب الدين
الحارمي وقال له ان هذا صلاح الدين هو ابن اختك وملكه لك وقد استقام له الامر فلا تكن اول
من يسعى في اخراجه عنه ولا يصل اليك ولم يزل به حتى احضره ايضا عنده وحلفه له ثم
عدل الى قطب الدين وقال له ان صلاح الدين قد اطاع الناس ولم يبق غيرك وغير الياروقي
وعلى كل حال فيجمع بينك وبين صلاح الدين فان اصله من الاكراد فلا يخرج الامر عنه
الى الاتراك

الى الاتراك ووعده وزاد في اقطاعه صلاح الدين ايضا وعاد الى عين الدولة الياروقي
وكان اكبر الجماعة واكثرهم جمعا فلم تنفعه رقاه ولا نفذ فيه سحره وقال انا لا اخدم يوسف
ابدا وعاد الى نور الدين ومعه غيره فانكر عليهم فراقه وقد فات الامر ليقضي الله امرا كان
مفعولا وثبت قدم صلاح الدين ورسخ ملكه وهو نائب عن الملك العادل نور الدين والخطبة
لنور الدين في البلاد كلها ولا يتصرفون الا عن امره وكان نور الدين يكاتب صلاح الدين با
لامير الاسفهسلار ويكتب علامته في الكتب تعظيما ان يكتب اسمه وكان لا يفرده في كتاب
بل يكتب الامير الاسفهسلار صلاح الدين وكافة الامراء بالديار المصرية يفعلون كذا
وكذا واستمال صلاح الدين قلوب الناس وبذل الاموال مما كان اسد الدين قد جمعه وطلب
من العاضد شيئا يخرجه فلم يمكنه منعه فمال الناس اليه واحبوه وقويت نفسه على القيام
بهذا الامر والثبات فيه وضعف امر العاضد فكان كالباحث عن حتفه بظلفه وارسل صلاح
الدين يطلب من نور الدين ان يرسل اليه اخوته فلم يجبه الى ذلك وقال اخاف ان
يخالف احد منهم عليك وتفسد البلاد ثم ان الفرنج اجتمعوا ليسيروا الى مصر فسير نور
الدين العساكر وفيهم اخوة صلاح الدين منهم شمس الدولة توران شاه بن ايوب قلت
وقد تقدم في ترجمة مستقلة قال وهو اكبر من صلاح الدين فلما اراد ان يسير قال له ان
كنت تسير الى مصر وتنظر الى اخيك انه يوسف الذي كان يقوم في خدمتك وانت قاعد
فلا تسر فانك تفسد البلاد واحضرك واعاقبك بما تستحقه وان كنت تنظر اليه انه صاحب
مصر وقائم مقامي وتخدمه بنفسك كما تخدمني فسر اليه واشدد ازره وساعده على ما هو
بصدده فقال افعل معه من الخدمة والطاعة ما يتصل بك ان شاء الله تعالى وكان معه كما قال
شيخنا ابن الاثير بعد هذا باوراق في فصل يتعلق بانقراض الدولة المصرية واقامة الدعوة
العباسية بها في المحرم سنة سبع وستين وخمسمائة فقال قطعت خطبة العاضد صاحب مصر
وخطب فيها للامام المستضيء بامر الله امير المؤمنين وكان السبب في ذلك ان صلاح الدين
يوسف بن ايوب لما ثبت قدمه في مصر وزال المخالفون وضعف امر العاضد ولم يبق من
العساكر المصرية احد كتب اليه الملك العادل نور الدين بالخوف من وثوب اهل مصر وامتنا
عهم من الاجابة الى ذلك لميلهم الى دولة المصريين فلم يصغ نور الدين الى قوله وارسل
اليه يلزمه بذلك الزاما لا فسحة له فيه واتفق ان العاضد مرض وكان صلاح الدين
قد عزم على قطع الخطبة فاستشار امراءه كيف الابتداء بالخطبة العباسية فمنهم من اقدم
على المساعدة واشار بها ومنهم من خاف ذلك الا انه لم يمكنه الا امتثال امر نور الدين
وكان قد دخل الى مصر انسان اعجمي يعرف بالامير العالم وقد رايناه بالموصل كثيرا فلما راى
ما هم فيه من الاحجام قال انا ابتدئ بها فلما كان اول جمعة من المحرم صعد المنبر قبل
الخطيب ودعا للمستضيء بامر الله فلم ينكر احد ذلك فلما كان الجمعة الثانية امر
صلاح الدين الخطباء بمصر والقاهرة بقطع خطبة العاضد واقامة الخطبة للمستضيء
بامر الله ففعلوا ذلك فلم ينتطح فيها عنزان وكتب بذلك الى سائر بلاد مصر وكان العاضد
قد اشتد مرضه فلم يعلمه اهله واصحابه بذلك وقالوا ان سلم فهو يعلم وان توفي فلا

Copyright King Saud University

Created with PDFsharp 1.2.1269-g (www.pdfsharp.com)